**فقيه الدنيا .. الفتى القرشي!**

**عبداللطيف بن عبدالله التويجري**

13/5/1438ه

**أَمَّا بَعْدُ**: عَاشَ يَتِيمًا، وَعَالَجَ فَقْرًا فَلَمْ يَمْنَعْهُ أَنْ يَكُونَ علمًا من الأعلام، بَلَغَ صِيتُهُ الْآفَاقَ، وَغَطَّى عِلْمُهُ الْأَرْضَ، فَمَا مِنْ عَالِمٍ إِلَّا وَيَأْخُذُ مِنْ عِلْمِهِ، وَقَدْ مَاتَ كَهْلًا فِي الْخَمْسِينَ مِنْ عُمْرِهِ.

طَلَبَ الْعِلْمَ فِي طُفُولَتِهِ، وَشُغِفَ بِهِ فِي وَقْتٍ كَانَ أَقْرَانُهُ يَمِيلُونَ لِلَّهْوِ وَاللَّعِبِ، لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدِ اخْتَارَ هَذَا الْفَتَى لِلْإِمَامَةِ، يَقُولُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عن نفسه: «وُلِدْتُ بِالْيَمَنِ، فَخَافَتْ أُمِّي عَلَيَّ الضَّيْعَةَ، وَقَالَت: الْحَقْ بِأَهْلِكَ، فَتَكُونَ مِثْلَهُمْ، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ تُغْلَبَ عَلَى نَسَبِكَ، فَجَهَّزَتْنِي إِلَى مَكَّةَ، فَقَدِمْتُهَا وَأَنَا يَوْمَئِذٍ ابْنُ عَشْرٍ أَوْ شَبِيهًا بِذَلِكَ، فَصِرْتُ إِلَى نَسِيبٍ لِي، وَجَعَلْتُ أَطْلُبُ الْعِلْمَ، فَيَقُولُ لِي: لَا تَشْتَغِلْ بِهَذَا، وَأَقْبِلْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، فَجَعَلْتُ لَذَّتِي فِي هَذَا الْعِلْمِ وَطَلَبِهِ، حَتَّى رَزَقَنِي اللَّهُ مِنْهُ مَا رَزَقَ».

وَعَنْ يُتْمِهِ وَفَقْرِ أُمِّهِ يَقُولُ: «كُنْتُ يَتِيمًا فِي حِجْرِ أُمِّي، وَلَمْ يَكُنْ مَعَهَا مَا تُعْطِي الْمُعَلِّمَ، وَكَانَ الْمُعَلِّمُ قَدْ رَضِيَ مِنِّي أَنْ أَخْلُفَهُ إِذَا قَامَ، فَكُنْتُ أُجَالِسُ الْعُلَمَاءَ، وَأَحْفَظُ الْحَدِيثَ أَوِ الْمَسْأَلَةَ، وَكَانَ مَنْزِلُنَا بِمَكَّةَ فِي شِعْبِ الْخَيْفِ، وحَفِظْتُ الْقُرْآنَ وَأَنَا ابْنُ سَبْعِ سِنِينَ، وَحَفِظْتُ (الْمُوَطَّأَ) وَأَنَا ابْنُ عَشْرٍ».

**وَلْنَنْظُرْ إِلَى أَبْنَاءِ الْعَشْرِ وَالْعِشْرِينَ في زمننا مَاذَا يَحْفَظُونَ؟ وَبِمَاذَا يَعْتَنُونَ؟**

وَمَا زَالَ التَّفَوُّقُ يُحَالِفُ هذا الْفَتَى الْقُرَشِيَّ حَتَّى تَأَهَّلَ لِلْفَتْوَى وهو صغير، حَتَّى قَالَ لَهُ شَيْخُهُ مُفْتِي مَكَّةَ مُسْلِمُ بْنُ خَالِدٍ: «أَفْتِ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ؛ فَقَدْ وَاللَّهِ آنَ لَكَ أَنْ تُفْتِيَ، وَهُوَ ابْنُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً».

ذَلِكُمْ يا عباد الله هُوَ الْإِمَامُ الْقُرَشِيُّ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيُّ.

الشافعي وما أدراكما الشافعي، الشافعي الذي َلمْ يَكُنِ يوما يَأْنَفُ أَنْ يَأْخُذَ الْعِلْمَ مِنْ أَقْرَانِهِ أَوْ مَنْ هُوَ دُونَهُ فِي السِّنِّ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ غَايَتُهُ، وَالْفَائِدَةَ هَدَفُهُ، وَهَذَا الَّذِي صَيَّرَهُ إِمَامَ الدُّنْيَا فِي زَمَنِهِ؛ وَلِذَا لَمْ يَأْنَفْ أَنْ يَأْخُذَ عَنْ تِلْمِيذِهِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَكَانَ غُلَامًا صَغِيرًا، وَقَدْ تَوَسَّمَ فِي الشَّافِعِيِّ مَا لَمْ يَتَوَسَّمْ فِيهِ غَيْرُهُ، فَكَانَ الطَّلَبَةُ يَلْزَمُونَ حَلَقَاتِ الْكِبَارِ الْمَشَاهِيرِ، وَكَانَ ابْنُ حَنْبَلٍ يَلْزَمُ الشَّافِعِيَّ وَهُوَ لَمْ يَشْتَهِرْ بَعْدُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ صَغِيرًا، وَلَمَّا عَاتَبَهُ بَعْضُ أَقْرَانِهِ فِي تَرْكِ الْكِبَارِ، وَالْجُلُوسِ إِلَى الشَّافِعِيِّ وَهُوَ لَا يَزَالُ فَتًى طَرِيًّا قَالَ أَحْمَدُ رَدًّا عَلَى الْمُعَاتِبِ: «إِنْ فَاتَكَ أَمْرُ هَذَا الْفَتَى، أَخَافُ أَنْ لَا تَجِدَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَفْقَهَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ هَذَا الْفَتَى الْقُرَشِيِّ. فَقِيلَ لَهُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيُّ».

فَرَحِمَ اللَّهُ الشَّافِعِيَّ وَابْنَ حَنْبَلٍ، كَانَا غُلَامَيْنِ يَجْلِسُ أَحَدُهُمَا إِلَى الْآخَرِ، وَمَا عَلِم الناس في ذلك الزمن أَنَّ هَذَيْنِ الْغُلَامَيْنِ سَيَكُونَانِ إِمَامَيْنِ كَبِيرَيْنِ فِي الْإِسْلَامِ، يَتَنَاقَلُ النَّاسُ عِلْمَهُمَا قُرُونًا كَثِيرَةً.

**إخوتي في الله!** إِنَّ آفَةَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُتَعَلِّمِينَ في زمننا الْعُجْبُ وَالْغُرُورُ وَالِاعْتِدَادُ بِالنَّفْسِ، خَاصَّةً عِنْدَ الْإِحْسَاسِ بِالتَّمَيُّزِ عَلَى الْأَقْرَانِ، وفي ذلك محقٌ لبَرَكَةِ الْعِلْمِ، وإطفاءِ لنوره، **ومِنْ ضَعْفِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ:** أن يسخره صَاحِبُهُ فِي الْجِدَالِ وَالْمِرَاءِ، وَالِانْتِصَارِ لِلنَّفْسِ، وَإِثْبَاتِ الْقُدْرَةِ عَلَى طَرْحِ الْخُصُومِ فِي الْمُنَاظَرَاتِ والمماحكات.

وَظُهُورُهُ فِي الشَّبَابِ كَثِيرٌ، وَهُوَ سَبَبٌ لِلنِّزَاعَاتِ وَالْمُنَاكَفَاتِ الَّتِي تَنْتَهِي فِي الْغَالِبِ بِوَغْرِ الصُّدُورِ، وَفَسَادِ الْقُلُوبِ، وَتَرَاكُمِ الْأَحْقَادِ.

وَكَانَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْعِلْمُ سَبَبًا لِلتَّوَاضُعِ وَخَفْضِ الْجَنَاحِ، وَالتَّوَسُّطِ وَالِاعْتِدَالِ، وَنُصْرَةِ الْحَقِّ حَيْثُ كَانَ.

**ولقد كان إمامُنا هذا اليوم:** الشَّافِعِيُّ رحمه الله يَجْتَنِبُ الْمِرَاءَ وَيَقُولُ: «الْمِرَاءُ فِي الدِّينِ يُقَسِّي الْقَلْبَ، وَيُورِثُ الضَّغَائِنَ». وَيَقُولُ: «بِئْسَ الزَّادُ إِلَى الْمَعَادِ الْعُدْوَانُ عَلَى الْعِبَادِ».

فَأَيْنَ مِنْ هَذَا الْعِلْمِ وَالْعَقْلِ مَنْ يَلُوكُونَ أَعْرَاضَ القادة والْعُلَمَاءِ وَالْمُصْلِحِينَ، وَيَرْمُونَهُمْ بِالْعُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ، وَيَسْعَوْنَ فِيهِمْ بِالْكَذِبِ وَالْبُهْتَانِ؟!

فَعَلَى كُلِّ مُتَعَلِّمٍ -وكلنا ذاك- أَنْ يَأْخُذَ بِوَصِيَّةِ هَذَا الْإِمَامِ، وَيُجَانِبَ الْعُدْوَانَ عَلَى الْعِبَادِ، ويترك المراء والعناد.

وَرَغْمَ شُهْرَةِ الشَّافِعِيِّ فِي الْمُنَاظَرَاتِ؛ لِقُوَّةِ حُجَّتِهِ، وَحُضُورِ أَدِلَّتِهِ، وَبَلَاغَتِهِ وَفَصَاحَتِهِ؛ فَإِنَّهُ مَا كَانَ يُحِبُّ الِانْتِصَارَ لِنَفْسِهِ، وَيَقُولُ: «وَاللَّهِ، مَا نَاظَرْتُ أَحَدًا، فَأَحْبَبْتُ أَنْ يُخْطِئَ». وَمِنْ مَوَاقِفِهِ فِي هَذَا الْبَابِ مَا حَكَاهُ يُونُسُ الصَّدَفِيُّ بِقَوْلِهِ: «مَا رَأَيْتُ أَعْقَلَ مِنَ الشَّافِعِيِّ، نَاظَرْتُهُ يَوْمًا فِي مَسْأَلَةٍ، ثُمَّ افْتَرَقْنَا، وَلَقِيَنِي، فَأَخَذَ بِيَدِي، ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا مُوسَى، أَلَا يَسْتَقِيمُ أَنْ نَكُونَ إِخْوَانًا وَإِنْ لَمْ نَتَّفِقْ فِي مَسْأَلَةٍ».

وَمَا كَانَتْ غَايَتُهُ إِلَّا أَنْ يَنْفَعَ النَّاسَ بِالْعِلْمِ، وَفِي هَذَا يَقُولُ: «وَدِدْتُ أَنَّ كُلَّ عِلْمٍ أَعْلَمُهُ تَعَلَّمَهُ النَّاسُ أُوجَرُ عَلَيْهِ، **وَلَا يَحْمَدُونِي**».

**أيها الشباب!** هَذَا الشَّابُّ حَفِظَ شَبَابَهُ فِي الْعِلْمِ فَسَادَ، وَسَخَّرَ مَوَاهِبَهُ فِيمَا يَنْفَعُهُ فَعَلَا صِيتُهُ، وَبَقِيَ أَثَرُهُ، فَمَلَايِينُ الْمُسْلِمِينَ يَنْتَفِعُونَ بِعِلْمِهِ مُنْذُ وَفَاتِهِ قَبْلَ أَكْثَرَ مِنَ اثْنَيْ عَشَرَ قَرْنًا إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، وَإِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، حَتَّى إِنَّ الْإِمَامَ الذَّهَبِيَّ خَتَمَ تَرْجَمَتَهُ لَهُ بِقَوْلِهِ: «فَرَحِمَ اللَّهُ الشَّافِعِيَّ، وَأَيْنَ مِثْلُ الشَّافِعِيِّ فِي صِدْقِهِ وَشَرَفِهِ وَنُبْلِهِ وَسَعَةِ عِلْمِهِ، وَفَرْطِ ذَكَائِهِ، وَنَصْرِهِ لِلْحَقِّ، وَكَثْرَةِ مَنَاقِبِهِ؟!»، **﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾**.

أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ...

**الخطبة الثانية**

**أَمَّا بَعْدُ**: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ **﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾**.

**أَيُّهَا الكرام**: يُحَاوِلُ بعض المهرجين بِكُلِّ وَسِيلَةٍ مُمْكِنَةٍ صَرْفَ شَبَابِ الْمُسْلِمِينَ عَمَّا يَنْفَعُهُمْ وَيَنْفَعُ أُمَّتَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ. يَصْرِفُونَهُمْ إِلَى اللَّهْوِ وَالْعَبَثِ وَاللَّذَّةِ الْعَاجِلَةِ، وَيَصْنَعُونَ لَهُمْ قُدْوَاتٍ سَيِّئَةً لِيَقْتَفُوا أَثَرَهَا، لَيْسَ لَهَا مِنَ الْإِنْجَازِ إِلَّا شُهْرَتُهَا فِي مَيَادِينِ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ وَالْعَبَثِ.

وَهُوَ مَا تكَرِّسُهُ بعض الوسائل الْإِعْلَامُية فِي وِجْدَانِ أَطْفَالِ المجتمع وَشَبَابِهِمْ وَفَتَيَاتِهِمْ.

يَجِبُ عَلَى الشَّبَابِ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ مَا يَصْنَعُهُ لهم الْإِعْلَامُ مِنْ هذه القُدْوَات الساقطة أخلاقيًا ومعرفيًا مَا هِيَ إِلَّا قُدْوَاتٌ فِي الشَّرِّ وَالرَّذِيلَةِ، وَعَدَمِ إِنْتَاجِ شَيْءٍ إِلَّا الْأَمْرَاضَ النَّفْسِيَّةَ، وَالسُّمْعَةَ السَّيِّئَةَ.

**عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ** مَرْحَلَةَ الشَّبَابِ هِيَ الْمَرْحَلَةُ الذَّهَبِيَّةُ لِلْإِنْجَازِ الْمُثْمِرِ، وَإِذَا ضَاعَتْ فِي اللَّهْوِ وَالْعَبَثِ ضَاعَ مَا بَعْدَهَا، فَصَارَ صَاحِبُهَا مُجَرَّدَ رَقْمٍ بَشَرِيٍّ لَا قِيمَةَ لَهُ فِي عَالَمِ الْمَعَارِفِ وَالْمُنْجَزَاتِ، والمواهب.

**عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ** وطنهم فِي أَمَسِّ الْحَاجَةِ إِلَيْهِمْ، وَإِلَى كُلِّ لَحْظَةٍ مِنْ أَوْقَاتِهِمُ الضَّائِعَةِ، وَإِلَى كُلِّ جُهْدٍ يَبْذُلُونَهُ فِي الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ. وَأَعْظَمُ الْغَايَاتِ اسْتِنْقَاذُ الْبَشَرِ مِنْ ضَلَالِ الفجور والضياع والإفلاس، وَإِخْرَاجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَتِلْكَ هِيَ مُهِمَّةُ الرُّسُلِ الَّتِي بُعِثُوا بِهَا، وَعَاشُوا لِأَجْلِهَا، وَاسْتَمَرُّوا عَلَيْهَا.

وَعَلَى الْآبَاءِ وَالْمُرَبِّينَ وَالْمُعَلِّمِينَ ومنافذِ التربية ورجالِها أَنْ يَسْتَخْرِجُوا سِيَرَ الشَّبَابِ النَّابِهِ فِي تُرَاثِ الْمُسْلِمِينَ، وَيَجْعَلُوهَا أُنْمُوذَجًا لِمَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ شَبَابُ الْمُسْلِمِينَ وَفَتَيَاتُهُمْ؛ لِمُقَاوَمَةِ هذا الخذلان الْإِعْلَامِيِّ الرَّهِيبِ الَّذِي يَسْعَى ببعض ببَرَامِجِهِ الْمُتَعَدِّدَةِ لِطَمْسِ القُدْوَاتِ الصالحة المشرقة، وَتَرْبِيَةِ الشَّبَابِ وَالْفَتَيَاتِ عَلَى الْعَبَثِ وَاللَّهْوِ الْحَرَامِ!

ألا ما أصعب التربية في هذا الزمن يا عباد الله! ألا ما أصعب التربية.. في زمن أنت تبني فيه، ووسائل الإعلام تهدم، والمدرسة تبني، الشارع يهدم! والله المستعان!

حمى اللهُ شبابنا، وقرةَ أعيننا من كل سوء ومكروه، وجعلهم الله ذخرًا وفخرًا للوطن، وجعلهم مباركين على أهليهم ومجتمعهم.. اللهم آمين.